تدبر القلب والعقل للقرآن الكريم- الموانع والوسائل

إعداد الدكتور/ علي الأمين عوض الله – الأستاذ المساعد بقسم التفسير بكلية أصول الدين

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، حمد الشاكرين العارفين الذي أنزل علينا خير كتاب لنتدبر آياته ولنتذكر مافيه من عبر ومواعظ ونسير على نهجه وخطاه كما قال تعالى "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ...سورة ص(٢٩) والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه وسلم.

فقد أنعم الله علينا بنعم كثيرة لا تحصى ،ومن ضمن هذه النعم ،نعمة الحواس ،فقد جعل لنا أعيناً نبصر بها ،وآذاناً نسمع بها ،ولساناً ننطق به ،وقلوباً نفقه بها ونميز الحق من الباطل. وقد أمرنا تعالى أن نتدبر القرآن ونعمل حواسنا في فهمه ومعرفة أحكامه ومواعظه والعمل به به فنجد الانتفاع والأجر والثواب والبركة والفلاح ،فيكون لنا هدى وموعظة ونوراً ورحمة.

فالانتفاع بالقرآن يتحقق إذا قرأناه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعية ،وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي والتدبر سنجد عنده مايزيد ،سنجد حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون ،وسنجد عندئذٍ في القرآن متاعاً وحياة.

والقرآن يخاطب القلب أول مايخاطب ،ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح الذي يتلقاه بالإيمان واليقين ،وكلما كان القلب عامراً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن وأدرك من معانيه وتوجيهاته مالا يدركه منه القلب الصلد الغافل.ويحثنا بتناول القلب والعقل من حيث الموانع التي تمنعهما من التدبر والوسائل التي تساعد على تنمية التدبر والانتفاع بالقرآن.

أسباب اختيار الموضوع :

١. أهمية هذا الموضوع لتعلقه وتدبر كتاب الله كما أمرنا به تعالى.
٢. كشف النقاب عن التدبر وضرورته حتى يتحول إلى سلوك وعمل.

٣. إبراز دور أدوات التدبر وبخاصة القلب والعقل وضرورة الإهتمام بسلامتها وتنمية قدرتها على التدبر،والتخلص من موانع التدبر.

منهجية البحث :

١. تناولت الآيات التي ذكر فيها القلب والعقل واقترانها بالقرآن وأهميتهما في التدبر وسر الاقتران حسب ما تيسر وأثر ذلك في التدبر.وذلك لأن ضم النص إلى نص آخر متعلق به يعطي فهماً زائداً.

٢. تناولت الموانع التي تمنع القلب والعقل من تدبر القرآن كما تناولت الوسائل المعينة على تنمية ذلك.

يتكون البحث من مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع

تمهيد :

معنى التدبر لغة واصطلاحاً :

التدبر لغة : من دبر الشئ نهايته وخاتمته ومن دبر الأمر ساسه ونظر في عاقبته ،و"التدبير" التفكير فيه. ومنه قوله "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ..المؤمنون(٦٨) يعني ألم يتفهموا ما خوطبوا به من القرآن.

التدبر اصطلاحاً : هو النظر في عواقب الأمور وهو قريب من التفكر [1] إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب.[2]

ويتضح لنا من ذلك أن التدبر هو التأمل والنظر وإعمال العقل في القرآن وما فيه من المعاني البديعية ،والأحكام ،والدلالات ،والإرشادات والمعجزات الحسية والمعنوية ،واللطائف والإشارات.

المبحث الأول : القلب موضع تلقي وفهم القرآن:

---

[1] انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي (٤٩٩/١)وانظر المعجم الوسيط (٢٦٩) وانظر لسان العرب لابن منظور(٢٦٨/٤).

[2] التعريفات للجرجاني(٧٦/١).

المطلب الأول : مكانة القلب وأهميته :

القلب لغة : تحويل الشئ عن وجهه ،والقلب الفؤاد ،وقد يعبّر عنه بالعقل ،والقلب مضغة من الفؤاد مذكر والجمع قلوب.[٣]

والقلب اصطلاحاً: يقول الغزالي "يطلق القلب على معنيين ،الأول قطعة اللحم الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص في تجويفه دم وهو منبع الروح ومعدنه ،الثاني :هو لطيفة ربانية لها علاقة بالقلب الجسماني وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ،وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ،وهذا كله يدل على عظم القلب ومكانته فهو محل الإدراك.[٤]

ومن هذا التعريف يتضح لنا مكانة القلب وأهميتة ،وقد بين القرآن الكريم المكانة العالية التي يتصف بها القلب ،فهو ملك الحواس وغيره الجنود ،وهو المنجي من العذاب إذا كان سليماً من الشرك .قال تعالى :(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .. الشعراء الآيات(٨٨،٨٩) .

والمعنى لا يقي المرء من عذاب الله مال ولا بنون إلا من جاء بقلب سالم من الشرك والدنس ،قلب يشهد ألا إله إلا الله ،وهو قلب المؤمن لا قلب المنافق الذي فيه فساداً في العقيدة ونفاقاً وجحوداً وتكذيباً.[٥]

ويقول القرطبي "خص القلب بالذكر لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح وإذا فسد فسدت سائر الجوارح.[٦]

[٣] انظر مختار الصحاح للرازي (١/٥٦٠) وانظر لسان العرب لابن منظور ١/٦٨٥.

[٤] إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/٣).

[٥] انظر تفسير القرآن لابن كثير /٣/٤٥١وانظر فتح القدير للشوكاني(٤/١٥٣).

[٦] الجامع لأحكام القرطبي (١٣/١٠٧).

وهكذا نجد أن صلاح الإنسان وفساده يعتمد على القلب وميوله وإرادته :وفي حديث النعمان بن بشير قال :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.[٧]

والمعنى أن القلب سلطان البدن.فصلاح الجسد وفساده تابعان له .وبقية الأعضاء كالرعية،وهو بحسب الطب أول نقطة تكون في النطفة ،ومنه تظهر القوى ومنهَ تنبعث الأرواح ،ومنه ينشأ الإدراك ويبتدئ التعقل ،فلهذه المعاني خصّ القلب بالذكر.[٨]

وهذا يبين مكانة القلب الذي به صلاح الجسد فكل الجوارح مسخرة له ومطيعة فما استقرّ فيه ظهر عليها وعملت على معناه خيراً أو شراً.

وفي الحديث يتمثل اعجاز السنة في أن صلاح الجسم من الناحية الصحية متوقف أيضاً على صلاح القلب "فإذا كان القلب صالحاً استقامت الدورة الدموية ونالت كل خلية في الجسم حظاً من الدم الذي يحمل الغذاء والأكسجين وبه يتم إحتراق المواد الغذائية ،وإذا فسد القلب اختلت الدورة الدموية واختل وصول الغذا والأكسجين إلى خلايا الجسم فيفسد.[٩]

ومن ناحية أخرى فإن القلب هو محل نظر الله تعالى كما جاء في حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ،ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).[١٠]

ومعنى نظر الله : مجازاته ومحاسبته والمقصود أن الإعتبار في هذا كله بالقلب ،فالقلوب هي محل التقوى وأوعية الجواهر ،وكنوز المعرفة.[١١]

---

[٧] صحيح البخاري (٢٨/١)صحيح مسلم (٨٢١٩/٣)رقم "١٥٩٩".

[٨] انظر عمدة القارئ في صحيح البخاري للعيني (٢٩٥/١)وشرح النووي على مسلم(٢٨/١١).

[٩] الإعجاز العلمي في السنة د.زعلول البخاز"٤٣٢".

[١٠] صحيح مسلم (١٨٨٦/٤)رقم "٢٥٦٤".

[١١] شرح السيوطي على مسلم (٥٠٨/٥).

ولأنه محل نظر الله تعالى يجب أن يطهر من كل العيوب والمعاصي والأمراض ،لأن الله تعالى مطلع عليه ويعلم ما بداخله ،فيكون قلباً مستقراً بالإيمان مطمئناً بذكر الله ،بعيداً عن الحسد والحقد والبغض .قال تعالى :(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ..الرعد الآية(٢٨) .

ويتبين لنا أهمية القلب من كل ذلك في الآتي :

أ- أن العقل والفهم إنما هو في القلب وموطنه.

ب- أن الله جعل الجوارح مسخرة له ومطيعة فما استقر فيه ظهر عليها وعملت على معناه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ج- أن القلب ملك الحواس وغيره من الأعضاء جنود له طائعين.

د- أن صلاح الإنسان وفساده يعتمد على القلب وميوله وإرادته ،فإذا كان القلب سليماً من الشرك ،ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الله ،وخشية الوقوع فيما يكرهه ،صلحت حركات الجوارح كلها وإذا كان القلب فاسداً ،فسدت حركات الجوارح كلها.

ه- أن القلوب محل نظر الله تعالى ومحاسبته ،وهي محل التقوى ،وأوعية الجواهر وكنوز المعرفة.

المطلب الثاني : مسئولية العبد عن حواسه وشهودها عليه :

ويُسئل العباد عن حواسهم فيم استعملوها وفي أي شئ سخروها أفي طاعة الله أم معصيته. قال تعالى :(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .. سورة الإسراء الآية(٣٦).

يقول ابن كثير :قال قتادة :لاتقول رأيت ولم تر ،وسمعت ولم تسمع ،وعلمت ولم تعلم ،فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله .. فالله تعالى نهى عن القول بلا علم. و"كل اولئك"

هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد يسأل العبد عنها يوم القيامة .وتسأل عنه عما عمل فيها.[١٢] وقال تعالى :(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ..سورة التكاثر الآية(٨).

قال ابن عباس :"النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار قال:يسأل الله العباد فيم استعملوها وهو أعلم بذلك منهم.[١٣]

فالله تعالى أنعم على الإنسان بهذه الحواس لحكمة وغاية :

فالسمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه ،والقلب ليعقلها ويفقهها ،والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته.

فإن لم يعمل بكل ذلك ويسخر هذه الحواس فيما خلقت له تشهد عليه يوم القيامة إن خيراً فخيروإن شراً فشر. فهي تنطق بأمر الله تعالى ،وهي خير شاهد على النفس ،ودليل قاطع لا يحتمله الشك ،قال تعالى :(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فصلت الآيات(٢٠،٢١).

فهذه الجوارح تشهد على أهلها عند استشهاد الله إياها عليهم إذا هم أنكروا الأفعال التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخط الله.[١٤]

وبغض النظر عن كيفية هذه الشهادة .سواء بالقدرة على النطق ،أو الحروف الدالة على المعاني ،أو أحوالاً تدل على صدور تلك الأعمال فإن الشهادة ثابتة بالآية وبحديث مسلم والطبري بسنده عن أنس قال :"ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى بدت نواجزه ،ثم قال :عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة .قال :يقول :يارب أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: فإن لك ذلك .قال :فإني لا أقبل عليّ شاهداٍ إلا من

[١٢] تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٣/٥٧).

[١٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١٠/٢٢٥).

[١٤] جامع البيان للطبري (١١/٩٩).

نفسي.قال:أوليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال :فيختم علي فيه ،وتتكلم أركانه بما كان يعمل .قال :فيقول لهنْ :بعداً لكنّ وسحقاً عنكنّ كنت أجادل.[15]

ومن ناحية أخرى نجد أن الله تعالى قرن بين الشكر وأعضاء الإدراك في كتابه أكثر من موضع فقال : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ..سورة النحل (٧٨).

ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً. ثم بعد هذا يرزقهم تعالى :السمع الذي به يدركون الأصوات ،والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة – وهي العقول – التي مركزها القلب على الصحيح.والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها،وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ،فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.[16]

فشكر الله يتمثل في استخدام هذه الحواس في طاعته ،وأول الشكر :الإيمان بالله الواحد المعبود.

وقال تعالى :(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ..سورة السجدة(٩).

فالشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ،وتمجيده بصفاته،ثم عبادته وحده..والشكر المطلوب : هو استخدام هذه الحواس في اكتساب العلم المعين على طاعة الله وابتغاء رضاه ،وأفضل مايتقرب العبد به إلى الله هو تدبر كتابه الكريم ،والعمل بما فيه حتى نكون من عباده القليل كما قال :(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ..سبأ (١٣).

المطلب الثالث: إقتران القلب بالقرآن :

إقترن ذكر القرآن بالقلب في أكثر من موضع من كتاب الله منها :

---

[15] المصدر السابق نفس الصفحة والحديث في صحيح مسلم رقم "٢٩٦٩"(٤/٢٢٨٠).

[16] تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٢/٧٦٤).

أ- قال تعالى:(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ..البقرة(٩٧).

يقول القرطبي :(خص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف).

وقال البيضاوي:(لأنه القابل الأول للوحي ومحل الفهم والحفظ).[١٧]

ب- وقال تعالى:(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)..سورة الشعراء.

يقول أبو السعود :أي روحك ،وإن أريد به العضو فتخصيصه به لأن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تصعد إلى الدماغ.[١٨]

ويقول الشوكاني :(وجه تخصيص القلب لأنه أول مدرك من الحواس الباطنة).[١٩]

وقال تعالى :(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا..سورة محمد (٢٤).

والمعنى :(بل على قلوب أقفالها فهم لا يعقلون .فالأقفال إشارة إلى ارتياح القلب وخلوه عن الإيمان ،أي لا يدخل قلوبهم الإيمان).[٢٠]

وقال تعالى :(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..ق(٣٧).

أي لمن كان له عقل وإدراك.[٢١]

من ذلك يتضح لنا أن من أسرار إقتران القلب بالقرآن:

---

[١٧] الجامع لأحكامالقرآن للقرطبي ٣٧/٢.أنوار التنزيل للبيضاوي٣٦٦/١.

[١٨] إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢٦٤/٦.

[١٩] فتح القدير للشوكاني ١٦٨/٤.

[٢٠] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي٢٠٩/١٦.

[٢١] جامع البيان للطبري ٤٣٢/١١.معالم التنزيل للبغوي٣٦٣٦/١.

لأنه قوة الإدراك ومحل الفهم وتلقي المعارف .ولأنه أول مدرك من الحواس الباطنة فهو المخاطب لأنه موضع التمييز والفهم وهو سلطان الجسد وسائر الأعضاء مسخرة له ،وهو عقل لأنه يفهم ويتدبر.

هيئة قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لتلقي القرآن :

ولعلاقة القلب بالقرآن فقد هيأ الله تعالى قلب النبي صلى الله عليه وسلم ليتلقى القرآن ،وفي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه.[٢٢]

وقد هيأ الله تعالى قلوب الصحابة رضوان الله عليهم حتى تستعد لتلقي القرآن وتنتفع به.

المبحث الثاني : القلب ووظيفته في تدبر القرآن :

المطلب الأول :إقتران القلب بحاستي السمع والبصر :

ارتباط القلب بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما ،ولهذا نجد في القرآن الكريم اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما .بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما:

قال تعالى :(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ..البقرة(٧).

وقال تعالى:(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ.. الأعراف(١٧٩).

وقال :(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ..النحل(٧٨).

[٢٢] صحيح مسلم (١/١٤٥) رقم ١٦٢.

وقال :(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا.. الإسراء (٣٦).

وقال:(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ..الملك (٢٣)

وغير ذلك من الآيات التي يكون فيها اقتران السمع والبصر بالقلب ،وسر الاقتران أن هذه الثلاثة هي طرق العلم وهي : السمع ،والبصر ،والعقل. وخص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم.وعلى العبد أن يشكر الله وذلك باستعمال هذه الحواس في طاعة الله.

ومن حكمة الترتيب: أن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور، ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل.

ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ،ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ،فكذلك الإنسان يسمع ،ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية.[٢٣]

وقرن الله تعالى بين الصم والبكم والعمي في أكثر من موضع في كتابه ،وهي حجب تصيب القلب على الحقيقة وتصيب الجوارح بالتبعية .قال تعالى:(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ.. البقرة(١٨).

وقال:(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تجدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا..الإسراء (٩٧).

والمعنى :عن قتادة :صم عن الحق فلا يسمعونه ،عمي عن الحق فلا يبصرونه ،بكم عن الحق فلا ينطقون به.[٢٤]

---

[٢٣] تفسير الرازي(٣٠٣/١٢).

[٢٤] جامع البيان للطبري(٣٣١/١).

قال ابن القيم: (الصم والبكم والعمي للقلب بالذات والحقيقة ،والجوارح بالفرض والتبعية:(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ..الحج(٤٦). وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر كيف وقد قال تعالى:(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ..النور..(٦١). وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب.[٢٥]

والبكم نوعان : بكم القلب ،وبكم اللسان ،كما أن النطق نطقان نطق القلب ونطق اللسان .وأشدهما بكم القلب ،كما أن عماه وصممه أشدّ من عمى العين وصمم الأذن .فوصفهم سبحانه بأنهم لايفقهون الحق ولاتنطق به ألسنتهم. والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب من سمعه وبصره وقلبه وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة فسدّ السمع بالصمم والبصر بالعمى والقلب بالبكم.[٢٦]

المطلب الثاني: وظائف القلب في التدبر :

أولاً: الفقه عن الله تعالى :قال تعالى:(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ..الأعراف(١٧٩).

فالآية دليل على أن"القلب آلة الفقه والعلم" فوظيفته تدبر الآيات الهادية إلى الكمالات. والعمل بها ونشرها.

ولقد ذكرت مادة الفقه في عشرين موضعاً من القرآن ،تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم والتعمق في العلم،الذي يترتب عليه الانتفاع به.

---

[٢٥] الجواب الكافي لابن القيم"٨٢".

[٢٦] شفاء العليل لابن القيم(٩٦).

من الفقه المطلوب من القلب :

فقه: ماتصلح وتتزكى به النفس من توحيد الله فإن من يعبد الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلو نفسه وتسمو بمعرفة ربّه ،مدبر الكون فلا تذل نفسه بدعاء غيره ،والخوف منه ،والرجاء فيه ،والاتكال عليه ،بل يطلب كل مايحتاج إليه من ربه وحده.

فقه يعين على: ترك الشرور والمنكرات ،والحرص على أعمال الخيرات والتحلي بالفضائل .

فقه يعين على فهم : الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق. فقه أسباب النصر على الأعداء من روحية وخلقية وعقلية واجتماعية.

فقه: أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس.[٢٧]

ثانياً العقل:

قال تعالى :(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ..الحج(٤٦).

والآية حث على السفر ،والاتعاظ بالفكر والتأمل بالبصيرة. أي هلا يسافر هؤلاء في البلاد ،فيتأملوا بماحدث من مصارع القوم وينظروا بأعينهم ماوقع ،ويشاهدوا آثارهم ويفكروا بعقولهم في النتائج فيعتبروا بما شاهدوا ورأوا. ويقلعوا عماهم فيه من شرك وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وينيبوا إلى ربهم الذي خلقهم وأقام لهم الأدلة والبراهين في الكون على وجوده ووحدانيته.

المطلب الثالث: موانع القلب من التدبر :

أولاً القسوة :

قال تعالى :(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ...الزمر(٢٢).

أي فلا تلين عند ذكره ،ولا تخشع ولاتعي ولا تفهم.[٢٨]

---

[٢٧] تفسير المنار سيدرضاء(٩/٣٥٢).

[٢٨] تفسيرالقرآن العظيم لابن كثير(٧/٩٣).

قال مالك بن دينار :(ماضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب).[٢٩]

وقسوة القلب مستعارة لقلة تأثر العقل بما يسدي إلى صاحبه من المواعظ ونحوها.

قال الفخر الرازي:(أعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية ،وزيادة الإطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ،وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية ،فإذا مرضت النفوس بعد ذكر الله فلا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه.[٣٠]

ثانياً الرين :

الرين صدأ يعلو الشئ الجليل ،قال تعالى :(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .. المطففين(١٤).

أي صار كصدأ على جلاء قلوبهم فعمى عليه معرفة الخير من الشر.[٣١]

ويقول الطبري: أي غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها ،فلا يدخلها فهم القرآن.[٣٢]

ثالثاً : الختم :

الختم والطبع يقال على وجهين :مصدر ختمت وطبعت وهو تأثير الشئ كنقش الخاتم والطابع. والثاني :الأثر الحاصل على النقش.ويتجوز بذلك تارة في المنع من الشئ ،اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو :(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ..البقرة (٧). و:(وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ..الجاثية(٢٣).

[٢٩] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٨/٧).

[٣٠] البحر المديد(٣١١/٥).

[٣١] المفردات للمراغي٨٠٢.

[٣٢] جامع البيان للطبري(٢٨٦/٢٤) والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٠/١٦).

وتارة في تحصيل أثر عن شئ اعتباراً بالنقش الحاصل ،وتارة يعتبر من بلوغ الآخر ومنه قيل ختمت القرآن أي انتهيت إلى آخره.[٣٣]

فإن قال لنا قائل : وكيف يختم على القلوب وإنما الختم طبعُ على الأوعية والظروف والغلف؟

قيل : فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم وظروف لما جعل فيها من المعارف بالأمور ولا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فض خاتمه وحلّ رباطه عنها.[٣٤]

رابعاً: الطبع :

الطبع أن تصور الشئ بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم ،وهو أعم من الختم وأخص من النقش.[٣٥]

قال عالى:(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ..المنافقون(٣).

قال مقاتل:طبع على قلوبهم بالكفر فهم لايفقهون القرآن فلا يمكنهم تدبره ولا الإستدلال به.[٣٦]

ويقول أبو صفر :إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ،وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله عز وجل والطبع ،فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله :(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ[٣٧] وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ..البقرة(٧) .

---

[٣٣] غرائب القرآن للسجستاني ١٤٣.

[٣٤] جامع البيان للطبري(١/٢٦١).

[٣٥] المفردات للراغب(٢٠٨).

[٣٦] تفسير الرازي (١٥/٣٥٦).

[٣٧] جامع البيان للطبري (١٥/٣٥٦).

خامساً :القفل :

القفل جمعه أقفال ،يقال أقفلت وقد جعل ذلك مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل فيقال فلان مقفل عن كذا. قال تعالى :(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ..محمد(٢٤).

أي : بل على قلوب أقفالها ،فهي مطبقة لا يخلص إليها شئ من معانيه.[٣٨]

وقال مقاتل :يعني الطبع على القلوب.[٣٩]

وقال مجاهد : الران أيسر من الطبع ،والطبع أيسر من الإقفال ،والإقفال أشدّ ذلك كله.[٤٠]

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل ويهديه بعد ضلاله ،ويعلمه بعد جهله ،ويرشد بعد غيه ،ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده.[٤١]

سادساً: المرض :

قال تعالى :(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ..التوبة(١٢٥).

قال ابن عباس رضي الله عنهما- المرض :النفاق ،وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم..[٤٢]

سابعاً :الصرف :

قال تعالى :(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ...التوبة (١٢٧).

---

[٣٨] تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٣٢٠/٧)

[٣٩] .فتح القدير للشوكاني (٤٨٢/٦).

[٤٠] زاد المسير لابن الجوزي (٣٧٨/٥).

[٤١] شفاء العليل لابن القيم(٩٠).

[٤٢] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٩/٤).

صرف الله قلوبهم عن الفهم بأمر تكويني فحرموا الإنتفاع بأبلغ واعظ لأنهم لا يفقهون مايسمعونه من هذه الآيات لعدم تدبرها ،والإعراض عن النظر والتأمل في معانيها وموافقتها للعقل ، وهدايتها إلى الحق والعدل.[٤٣]

المطلب الرابع :وسائل تنمية القلب في التدبر :

والقصد هو الترقي به من حال إلى حال حتى يصل إلى الإطمئنان منها :

أولاً اللين :

اللين :ضد الخشونة : قال تعالى:(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ..الزمر(٢٣).

فيه إشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأبيهم منه وإنكارهم إياه .ولين القلب :رقته وطمأنينته وسكونه.[٤٤]

ثانياً : الوجل :

الوجل :إستشعار الخوف ،أو هو خوف مقرون بهيبة ومحبة.[٤٥]

قال تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ..الأنفال الآية(٢).

وعن ثابت البناني قال:(إذا اقشعرّ جلدي ووجل قلبي ،وفاضت عيناي ،فذلك حين يستجاب لي)،وعن عائشة رضي الله عنها قالت:"ما الوجل في القلب إلا كضرمة احراق السعفة ،فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك"[٤٦] وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه ففعل أوامره وترك زواجره.

---

[٤٣] التحرير والتنوير لابن عاشور (٤١١/٦) وتفسير المنار رشيد رضا(٩٦/١١).

[٤٤] غريب القرآن للسجستاني(٤٥٧)والجامع لأحكام القرآن للقرطبي(٢٥٠/١٥).

[٤٥] غريب القرآن للسجستاني(٥١٣) وشفاء العليل لابن القيم(١٠٦).

[٤٦] تفسير المنار-رشيد رضا (٤٩١/٩).

أنواع الوجل : للوجل أنواع تختلف باختلاف درجات المؤمنين، وأعلى أنواعه شعور المهابة والعظمة والإجلال لربهم الرحمن الرحيم الخالق الرازق ،الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير ،ويليه الوجل من جهل العاقبة ،ومن العقوبة بالحجاب أو العذاب وهذا الشعور بأنواعه آية الإيمان الوجداني وثمرته.[٤٧]

آثار الوجل في التدبر:[٤٨]

١/ الصبر على المكاره : وذلك هو المراد بقوله :(وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ..الحج(٣٥).وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب.

٢/ الإشتغال بالخدمة : وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة وهو المراد بقوله :(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ..الحج (٣٥).

- وأما الخدمة بالمال فهو المراد بقوله:(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ..الحج (٣٥)..

"وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً ليناسب معنى الوجل ،فذكر الله يكون بذكر اسمه ،وبذكر عقابه وعظمته ،وبذكر ثوابه ورحمته ،وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كل المؤمنين ،فيبعث المؤمن إلى الإستكثار من الخير وتوقى مالا يرضى الله تعالى ،ولذلك روى عن عمر بن بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال :(أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه".[٤٩]

ووجل القلوب عند ذكر الله وخوفها منه لاينافي ماذكره الله من أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله كما في قوله :(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .. الرعد(٢٨).

---

[٤٧] المصدر نفسه (١١٤/١).

[٤٨] تفسير الرازي (١١٩/١١).

[٤٩] التحرير والتنوير لابن عاشور(٧٤/٦).

فالطمأنينة: بذكر الله :تكون بانشراح الصدر لمعرفة التوحيد وصدق ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فطمأنينتهم بذلك قوية لم تتطرقها الشكوك ولا الشبه.

والوجل :عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى وعدم تقبل الأعمال كما قال تعالى عن الراسخين في العلم :(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ..آل عمران(٨).

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهي ،فيغشاه جلاله ومخافته ،ويتمثل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره هو وذنبه ،فينبعث إلى العمل والطاعة .ويجد في آيات هذا القرآن مايزيده إيماناً ،وما ينتهي به إلى الإطمئنان.[٥٠]

ثالثاً : الخشوع:

الخشوع : الضراعة وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح.[٥١]

والخشوع : الانخفاض والذل والسكون.[٥٢]

قال ابن تيمية :(الخشوع يتضمن معنيين : أحدهما :التواضع والذل. والثاني: السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة ،فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً.[٥٣]

قال تعالى:(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ..الحديد الآية(١٦).

أي :تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ،فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

---

[٥٠] الظلال لسيد قطب(٣/٣٦١).

[٥١] غريب القرآن للسجستاني"١٤٨".

[٥٢] مدارج السالكين لابن القيم(١/٥٢٠).

[٥٣] مجموع الفتاوي لابن تيمية (٧/٢٨).

يقول سيد قطب : "إنه عتاب مؤثر من المولى الرحيم ،واستبطاء للإستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله،عتاب فيه الود ،وفيه الحض ،وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ،والخشوع لذكره ،وتلقي مانزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام.[٥٤]

ويقول ابن القيم:"دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان .يعني أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم قوله :رعاية وتعظيماً وحضوراً.[٥٥]

ونخلص من ذلك أنه يجب أن يورثنا قراءة القرآن بتدبر خشوعاً.

رابعاً: الاطمئنان :

الطمأنينة والاطمئنان : السكون بعد الإنزعاج.

قال ابن القيم :الطمأنينة :سكون القلب إلى الشئ وعدم إضطرابه وقلقه.[٥٦]

قال تعالى:(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .. الرعد(٢٨).

قال قتادة :هشت إليه استأنست به فتطيب وتركن إلى جانب الله ،وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيرا.[٥٧]

ويقول سيّد في ظلاله حول الآية :(فتطمئن بإحساسها بالصلة بالله ،والأنس بجواره ،والأمن في جانبه وفي حماه. تطمئن من قلق الوحدة ،وحيرة الطريق ،بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير.

---

[٥٤] الظلال لسيد قطب (١٣٣/٧).

[٥٥] مدارج السالكين لابن القيم (٥١٠/٢).

[٥٦] غريب القرآن للسجستاني"٢٠٧" مدارك السالكين لابن القيم(٥١٢/٢).

[٥٧] إحياء علوم الدين للغزالي (٤٢٧/٣) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٥٥/٤).

تطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلّا بما يشاء ،ومع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء.

وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.[58]

وهذا كله لايكون إلا بالتدبر.

خامساً : الإخبات :

الخبت المطمئن من الأرض ،وأخبت الرجل :قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد ،ثم استعمل الإخبات إستعمال اللين والتواضع ،قال تعالى :(فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ..الحج(٥٤). أي تلين وتخشع ،وقال:(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ...الحج (٣٤). أي المتواضعين فلا يستكبرون عن عبادته.[59]

فالإخبات يجمع بين التواضع والسكون إلى الله عز وجل ،وهو أول مقامات الطمأنينة.[60]

وللمخبتين أربع علامات :

(١) وجل قلوبهم عند ذكره ،والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة.

(٢) وصبرهم على أقداره.

(٣) وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً.

(٤) وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم.[61]

وهذه العلامات مأخوذة من قوله تعالى :(وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ...الحج(٣٤،٣٥) { .

---

[58] الظلال سيد قطب(٤/٣٦٧).

[59] غريب القرآن للأصفهاني "١٤١".

[60] مدارج الساكنين لابن القيم.(٢/٣).

[61] شفاء العليل لابن القيم"١٠٦".

أثر الإخبات على العبد المتدبر للقرآن :

يقول ابن القيم:متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ،ارتفعت همته ،وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم ،فصار قلبه مباشراً لحلاوة الإيمان واليقين، والوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.[٦٢]

وسائل تنمية القلب في التدبر:

من وسائل تنمية القلب في التدبر : التعوذ من قلب لايخشع :

عن زيد بن أرقم قال :(لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:(.. اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لايستجاب لها".[٦٣]

ومعناه استعاذة من الحرص والطمع والشره وتعلق النفس بالآمال البعيدة لأن القلب إنما خلق لأن يتخشع لبارئه وينشرح لذلك الصدر ،ويقذف النور فيه . فإذا لم يكن كذلك كان قاسياً فيجب أن يستعاذ منه[٦٤] قال تعالى :(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ..الزمر (٢٢).

المبحث الثالث :

العقل ووظيفته في تدبر القرآن:

العقل : يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ،ويقال للعلم الذي يستفيد منه الإنسان بتلك القوة عقل.[٦٥]

---

[٦٢] مدارج السالكين لابن القيم (٣/٢).

[٦٣] صحيح مسلم (٢٠٨٨/٤) التعوذ من شر ماعمل(٢٧٢٢).

[٦٤] عون المعبود محمد شمس الحق آبادي (٢٨٥/٤)دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٤١٥هـ.

[٦٥] غريب القرآن للسجستاني٣٤٢.

المطلب الأول : إقتران القلب بالعقل :

قال تعالى :(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ...الحج (٤٦).

وقال تعالى :(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ...الحشر(١٤).

وسر إضافة العقل إلى القلب لأنه محله.[٦٦]

قال ابن القيم : هذه المسألة اختلف فيها الفقهاء .هل العقل في القلب أو في الدماغ ؟ والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ.[٦٧]

ومن تيسير الله على عباده وحبه لهم ،أن أنزل القرآن بلسان عربي ليسهل تعقله وتفهمه قال تعالى :(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ..يوسف(٢).

وقال :(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ..الزخرف (٣).

فأنزله الله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه ،وأمرنا بتدبره ،والتفكر فيه وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير ،ومحصل العلوم والأسرار ،وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ،ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.[٦٨]

وقال تعالى :(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.. العنكبوت (٤٣).

والعقل هنا بمعنى الفهم ،أي لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم فكانوا علماءغير سفهاء الأحلام.[٦٩]

وهذا مدح للأمثال التي يضربها الله في القرآن ،وحث على تدبرها وتعقلها ومدح لمن يعقلها ،وأنه عنوان على أنه من أهل العلم ،ومن لم يعقلها ليس من العالمين.

---

[٦٦] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٧/١٢).

[٦٧] التبيان في أقسام القرآن الكريم لابن القيم (٢٥١).

[٦٨] تفسير السعدي(٢٩).

[٦٩] التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/١١).

قال بعض السلف :"إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله يقول:(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ).

وقال عمرو بن مره :(مامررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني.[٧٠]

المطلب الثاني : موانع العقل من التدبر :

أولاً : اللجوء إلى المحاكاة والإكتفاء بالمألوف :

قال تعالى :(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ..ز البقرة ١٧.) ،(١٧١).

لما بيّن الله تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل ،وردهم لذلك بالتقليد من ذلك أنهم غير قابلين للحق. ولا مستجيبين له فلن يزولوا عن عنادهم أخبر تعالى مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها ،وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم فلهذا كانوا صماً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول ،عمياً لا ينظرون نظر اعتبار ،بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم. والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح ،بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء.[٧١]

وقال ابن تيمية : عن موانع فهم القرآن :"وكذلك تأويل القرآن على قوله من قلّد دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره.[٧٢]

ويقول سيد قطب : إن الطريق الأمثل في فهم القرآن أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقاً.

---

[٧٠] تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١/٢٠٨).

[٧١] تفسير السعدي(٨١).

[٧٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية(١٦/٥١).

ويقول : لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا الإيمانية ، ومنها تكون قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً ، فإذا قررت لنا أمراً فهو المقرر كما قررته.[٧٣]

ثانياً: أن يعتقد أنه لامعنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل:

والقصد من ذلك ما أثر عن ابن عباس ومجاهد ،وغيرهما من أئمة التفسير وأن ماوراء ذلك تفسير بالرأي.

والمحمود في ذلك : أن يقوم العبد بعد أخذه بأسباب الفهم ،وانطلاقاً مما ورّثه لنا السلف من معاني إلى تدبر معاني القرآن واقتران ألفاظه بعضها ببعض ،وتتريلها على واقعه الشخصي ،وتعليمها لمن لم يتعلم ،ونشرها في الآفاق.

وفي هذا المعنى يقول القرطبي:"والنقل والسماع لا بدّ منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضيع الغلط ،ثم بعد ذلك يتسع الفهم والإستنباط."[٧٤]

ومن ذلك الفهم المحمود والتدبر المقصود ما قاله علي رضي الله عنه :" لو شئت لأوقرت بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب ،وقوله "إلا أن يؤتي الله عبداً فهما في القرآن"[٧٥]

وقال شيخ الإسلام : والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحل من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله. وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه".[٧٦]

---

[٧٣] الظلال سيد قطب (٧/٣٦٥).

[٧٤] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١/٣٤).

[٧٥] إحياء علوم الدين للغزالي(١/٢٩٢).

[٧٦] مجموع الفتاوي لابن تيمية(٢/١٦).

إذن ليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي ،والافتخار بتحصيل المعرفة ،وكشف المعاني للتعالي بمعرفتها ،وإنما وراء الفهم غرض التذكر والعظة ،والعمل بموجب العلم. وهذا لايحظى به إلا اولو الألباب.

المطلب الثالث : وسائل تنمية العقل على التدبر:

أولاً التفكر : التفكر هو إعمال العقل والتأمل في الشئ لفهمه ومعرفة ما يدق من أمره.[٧٧]

ويقول ابن القيم كاشفاً مآلات التفكر نتيجة للتدبر والمنافع التي تعود من ذلك :"فليس شئ أنفع للعبد في معاشه ومعاده ،وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل ،وجمع الفكر منه على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلى كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتريه صور الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه ،وتشهد عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ،وما يحبه وما يبغضه ،وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ،وقواطع الطريق وآفاتها ،وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها .ومن مراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة.[٧٨]

ومن الأمور التي حثنا القرآن الكريم على التفكر فيها:

١/ التفكر في حكمة الله في التحريم:

قال تعالى:(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ..البقرة(٢١٩).

وقال قتادة :(هي والله لمن تفكر فيها ،فآثروا الآخرة على الأولى".

---

[٧٧] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص٧٩٣.

[٧٨] مدارج السالكين لابن القيم (٤٥١/١).

قال الطبري: من تفكر فيهما عرف فضل احداهما على الأخرى وعرف أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء وأن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء فكونوا ممن يضرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة.[٧٩]

٢/التفكر في مخلوقات الله وتنزيهه عن النقائص:

قال تعالى:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ... آل عمران (١٩١).

يعتبرون بصنعه صانع ذلك فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شئ وهو مالك كل شئ وخالق كل شئ ومدبره وهو على كل شئ قدير.[٨٠]

والتفكر : الاعتبار وانبساط الذهن في المخلوقات .وحكى أن سفيان الثوري رضي الله عنه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء فلما رأى الكواكب غشى عليه وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته ،وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :(قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال:(أشهد أن لك رباً وخالقاً.اللهم اغفرلي ،فنظر الله له فغفر له).[٨١]

وقال صلى الله عليه وسلم: لا عبادة كتفكر.[٨٢] وروى عليه السلام قال:"تفكر ساعة خير من عبادة سنة".[٨٣]

---

[٧٩] تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٣٤٤/١) وجامع البيان للطبري (٣٦٩/٢).

[٨٠] المرجع نفسه (٥٥٠/٣)

[٨١] لم أعثر على تخريجه.

[٨٢] لم أعثر على تخريجه.

[٨٣] لم أعثر على تخريجه.

وقال الحسن :تفكر ساعة خير من قيام ليلة ،وقال :الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها.[٨٤]

وقال تعالى:(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.. النحل (٦٩).

يتفكرون في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة ،وجمعها للشمع والعسل من سائر الثمار ويتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون لذلك على أنه الفاعل الحكيم الكريم.[٨٥]

وقال :(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.. الروم (٢١).

والمعنى إجمالاً: أن الله جعل لكم من جنسكم أزواجاً تألفوها وتميلو إليها ،وجعل بينكم مودة ورحمة وشفقة وحب ،وفي كل ذلك آيات واضحة الدلالة على قدرته سبحانه – لعلكم تتفكرون وتستدلون بها على الله الواحد الأحد.[٨٦]

٣/ التفكر من أمثال القرآن :

قال تعالى :(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.يونس (٢٤).

وقال:(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ..العنكبوت (٤٣).

---

[٨٤] الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (٤/٣٠١).

[٨٥] تفسير القرآن لابن كثير(٢/٧٦١).

[٨٦] فتح القدير للشوكاني (٤/٣٠١).

يقول الطبري في قوله:" لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" :كما بينا لكم أيها الناس مثل الدنيا وعرفناكم حكمها وأمرها كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ونظر وحض به أهل الفكر لأنهم أهل التمييز بين الأمور والفحص على حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور.[٨٧]

٤/ التفكر في قصص القرآن :

قال تعالى:(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. الأعراف(١٧٦).

القرطبي قال:" دلت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه إذ لا يدري بما يختم له. ودلت على منع التقليد لعلم إلا بحجة يبينها لأن الله أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألا يقبل منه إلا بحجة[٨٨]

ثانياً: من وسائل تنمية العقل في التدبر: التذكر:

التذكر في اللغة ضد النسيان ،والتذكر من خواص أولي الألباب قال تعالى :(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ... الرعد (١٩).

قال ابن القيم: والتذكر والتفكر منـــزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان ،والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الله الفتاح العليم.[٨٩] وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر:

فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلاً عند القلب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه.

---

[٨٧] جامع البيان للطبري(٦/٥٤٦).

[٨٨] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(٧/٢٨٢).

[٨٩] مدارج السالكين لابن القيم(٦/٤٤١).

ولهذا قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت الحكمة.[٩٠]

ومن الأمور التي هي موضع تذكر للعبد المتدبر :

آيات الله المتلوة قال تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ..هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ... غافر(٥٣،٥٤).

وعن القرآن قال:(وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ..الحاقة (٤٨).

والآيات المشهودة :

قال تعالى:(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ - وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ - تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ. ق(٧،٦،٨).

ثالثاً: من وسائل تنمية العقل في تدبر القرآن : تدارس القرآن:

قال تعالى:(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ.آل عمران (٧٩)

الرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه وقول الحكماء العلماء الأتقياء. "وتدرسون" قرأت بالتخفيف وبالتشديد من التعليم كما قرأ ابن عامر وأهل الكوفة والتشديد أبلغ لأنها تجمع المعنيين تعلمون وتدرسون ، فيدل على العلم والتعليم والتخفيف إنما يدل على العلم فقط.[٩١] وقال ابن كثير تدرسون :تحفظون ألفاظه

[٩٠] مفتاح دار السعادة لابن القيم(١/١٨٣).

[٩١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(٤/١١٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده".[٩٢]

تدارسونه: أي يشتركون في قراءة بعضهم على بعض ،وكثرة درسه .ويتعهدونه خوف النسيان ،وأصل الدراسة التعهد وتدارس تفاعل للمشاركة.[٩٣]

فهو شامل لجميع ما يتعلق بالقرآن من التعلم والتعليم والتفسير واستكشاف دقائق معانيه ، وهذا يدل على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسته وتعلمه وتعليمه.

ومن اللطائف : أن فعل "يتدارس" مضارع ،وهذا يدل على أن المدارسة مستمرة ومتجددة ،ومع كل تدارس يفتح الله بمعاني على المتدبرين بإذن الفتاح العليم. يقول ابن تيمية "والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال من معانيها مالم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله ،وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه.[٩٤]

---

[٩٢] صحيح مسلم (٤/٢٠٧٤) فضل الاجتماع على تلاوة القرآن رقم (٢٦٩٩).

[٩٣] فيض القدير عبدالرؤوف المناوي(٥/٥٢٢).

[٩٤] مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢/١٦).

النتائج :

١- أن الله حافظ كتابه في السطور وفي الصدور.

٢- أن الله يسر حفظ القرآن ويسر فهمه بسلامة الحواس المعينة على التدبر.

٣- أن القرآن أوضح أن الحواس تتعاون فيما بينها كجنود للقلب في تدبر القرآن.

٤- أن القرآن أوضح أن العقل والفهم إنما هو في القلب وموطنه.

٥- أن القلب والعقل هما وعاء حفظ وفهم وتدبر القرآن إذا كانا سليمين من موانع التدبر.

٦- أن تدبر القرآن أو التفكر فيه مفتاح كل خير ومحصل للعلوم والأسرار والتذكر والعظات والأعمال.